الذئب ذو الحذاء البشري

(نهار داخلي- إحدى عربات مترو أنفاق القاهرة).. دقت ساعة القاهرة الثانية ونصف ظهرًا، حان الآن موعدنا اليومي مع ساعة الذروة، أضحت شوارع وطرقات المدينة الموحشة مزدحمة بسيارات البعض، في حين تكدس البعض الأخر داخل محطة للأنفاق بحثًا عن مكان في عربة مترو، وقفوا جميعًا كجلمود صخر لا يتحرك قيد أنملة، فقط أصوات أنفاسهم اللاهثة بفعل جو خانق يفتقد إلي منفس هواء جعلتهم أشبه ما يكون بالأحياء.

مشهد المحطة الصامت، درجة الرطوبة الخانقة، سيمفونية الشهيق والزفير المضطربة، صعود وهبوط صدورهم، صوت آلة التنبيه التي انطلقت إذانا باقتراب القطار، جميعها عوامل ساهمت في رسم لوحه بائسة من الصمت، حالة من السكوت يسودُهُ قلق وحُزن خيمت علي رؤوسهم، غير عابئين بتلك التي تدفع بجسدها الضئيل محاولة اختراق الصفوف لتقترب من الرصيف، بين الفينة والأخرى تلتفت لتلقي نظرة ذائغة مشوشة، كانت كمن يبحث عن شخص ما، أو شيء ما يطاردها.

لم تُثير قسمات وجه الفتاه المُلتاع أي من المحيطين بها، لم ينتبهوا إلي حالة الاضطراب التي سادت كل جزء من أجزائها، لم يلتفتوا إلي ارتعاش أطرافها، إلي العرق الذي سال أنهاراً علي وجنتيها، فقط، أبدي بعضهم امتعاضا مكتومًا لإصرارها علي تجاوزهم للحاق بالقطار الذي بدأ صوته يقترب رويدًا رويدا، وما أن حط رحاله، وفُتحت أبوابه، اندفعت بكل ما بقي لديها من قوه لتلقي بجسدها داخل إحدى عرباته، وما أن أغلق المترو أبوابه، وبدأ في التحرك حتي تنهدت بصوت بدا مسموعًا للجميع، فأطرقت رأسها بهدوء خجل، فجأة أطلقت شهقة مكتومة، انتفض جسدها الضئيل رعبًا، جحظت عيناها هلعًا وهي تنظر إلي ذلك الحذاء الذي تعرفه جيدًا، حذاء الشخص الذي اعتقدت إنها أفلتت منه منذ قليل.

لم تجرؤ الفتاة علي الحركة، لم ترفع رأسها المطأطئ، بدت وكأنها تمثال من الشمع، راقبت ذاك الحذاء بعين دامعة، كانت تخشي أن تفقد أثره، خُيل إليها للحظة أنها تقف وحيده لا يُحيط بها أحد، أضحي ركاب المترو وكأنهم أشجار ساكنة في الغابة الموحشة، أو كتلال مُصمتة في صحراء قاحلة، لا تري جانبها سوي ذاك الكائن مجهول الهوية ذو الحذاء البشري، انتبهت الفتاة إلي اختفاء الحذاء، لم يعد له وجود، رفعت رأسها بحثًا عنه، لم تجد له أثر، أصابع انتهكت حرمة جسدها دلتها عليه، صاحب الحذاء يقف خلفها.

«يا حيوان».. صرخة هادرة انتزعت بها الفتاة نفسها، ثم دارت في سرعة ورشاقة، وعلي طريقة أسطورة الكاتب نبيل فاروق، رجل المستحيل، أطلقت لكمة مدويه أصابت فك ذلك الذئب، لكمة بدت أشبه بقنبلة انفجرت داخل المترو، و"كلمة مترو لو حاولنا إزالتها لانهد بناء المشهد".. هكذا عبر الشاعر أحمد الدوسري في كتابه النقدي "أمل دنقل: شاعر على خطوط النار"، واصفًا إحدى مشاهد "دنقل" داخل إحدى عربات المترو، حيث للكلمة دلالتها المكانية المؤثرة علي المشهد، فكيف امتلك ذو الحذاء جرأة التحرش في المترو، وسط حصار الركاب الواقفين من شدة الازدحام.

"ما تخليش- القصة- تموت".. كنت قد قرأت شيئاً عن هذا الهاشتاج الذي أطلقته بعض الفتيات للتصدي لطاعون التحرش في بر مصر، سخرت كثيرا من ضحايا ألزمن أنفسهن الصمت، فكيف لهن أن يتركن ما وصفته تلك الفتاه حيوانًا حرًا طليقًا بلا عقاب، كيف تجاهلن إساءة أقل ما توصف بأنها حقيرة، ومن شخص أكثر ما يمكن أن نصفه إنه ذكر يفتقد اسمي معاني الرجولة، لكن ما حدث داخل عربة المترو عقب ضرب ذو الحذاء علي وجهه، جعلني أدرك أن مأساة أخرى تولد عقب كل حادث.

"خلاص يا بنتي متفرجيش عليكي الناس.. لبسك غير المحتشم هو السبب.. إنتي لازم تكوني شجعتيه علي كده.. عاوزة

تروحي القسم وتفضحي أهلك وسيرتك تبقي علي كل لسان"..
تخيلوا أن تلك العبارات المُحبطة يمكن أن تسمعها من إناس لضحية تعرضت للتحرش، ورغم إنهم شاهدوا بأم أعينهم ما يفعله ذو الحذاء البشري تراهم يأخذون صفه، والكارثة أن أكثر قائليها من الفتيات والنساء، حينًا تعاطفًا معها، وأحيانًا انتقامًا من مجتمع رفض يومًا مناصرتهن، أما المتحرش فعلي رأي الست أم كلثوم "يا روحي علية" يقف كأسد منتشي، انتهي لتوه من افتراس ضحية بنجاح منقطع النظير، انتفخت أوداجه فخرا بصنيع يديه، تاركًا أمة لا إله إلا اللّه تدافع عنه.

●●●

اشرب السُم فالدواءِ لم يعد موجودًا